

8

محنة الأمم

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره





الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

مِحنة الأُمم

جـمـعـيــة المــعـــارف الإســـلامــيـــة الـثـقـافـيـة

بــيروت . لـبـنــان . المـعـمـورة . الـشــارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٥/٣٢٧ . ٢٤/٥٣



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: مِحنـة الأُمـم

نــشـــــر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

إعـــــداد مركز نون للتّأليف والترجمة

الطبعة الأولى: 2009 م/ 1430هـ

مِحنة الأُمم

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الصــلاة والســلام على أشــرف الخلق محمّــد وعلى آله المنتجبين الأخيار.

يتعرّض الشهيد السعيد للمِحن التي تعيشها الأمّة، يدرس جوانبها الذاتيّة، ليستفيد منها على مستوى درجات الشعور الــذي يعيشه كلٌّ منّا تجاهها، ويرتقــي بالتالي إلى محاسبة النفس محاسبــة دقيقةً، ويخلص في نهايــة البحث للتأكيد على أن يكون غضبنا وألمنا وحبّنا وكرهنا كلّه للّه وفي سبيل اللّه سبحانــه وتعالــى، وبالتالــي يعرض الجنبــة العمليّة في معالجــة الأساليب التي ينبغي التفكير بهــا مليّاً في معالجة الابتلاءات.

وقــد قامت الجمعية باختيار هــذا البحث الذي بين يدي القارئ الكريم من كلمات الشهيد السعيد ثمّ تهذيبه وتشذيبه

من المكـرّرات التي تستوجبها المحاضـرات، مع التصرّف البسيط بالعبارة محافظة قدر الإمكان على عبارة الشهيد، مع إضافة بعض العناوين للفقرات والأبحاث، وإعادة ترتيب لبعض الأبحاث المترامية، وجمعها في بحث واحد، والإشارة إلى ذلك عند الضرورة.

ويعدّ هذا البحث الذي بين يدي القارئ الكريم، تلخيصٌ لمحاضرتيـن للشهيد السيّد محمّد باقـر الصدر (رضوان الله عليـه) ألقاهمـا في جمعٍ مـن طلبة العلـوم الدينيّة في النجـف الأشـرف بتاريـخ: ٢٦ و٢٧ / صفـر / ١٣٨٩ هــ.. (راجـع: المجموعـة الكاملـة لمؤلّفـات السيّـد محمّد باقر الصـدر/ دار التعـارف للمطبوعـات/ بيـروت ـ لبنان/ ط. ١٩٩٠ م/ ج ١٣).

الأهداف

١ . التعرّف إلى المحنة في المفهوم القرآنيّ.

٢ . التعرّف إلى درجات الشعور في المحنة.

٣ . التنبّه إلى الأرضيّة النفسيّة لأساليب العمل.

٤ . التأكيد على محاسبة النفس في المِحَن.

المحنة في المفهوم القرآنيّ[1]

إنّ المفهـوم القرآنـيّ عن المحنـة - أيّ محنـةٍ - يؤكّد أنّ الجماعـة الممتحنـة تتحمّـل مسؤوليّـة وقوع هـذه المحنة. يقول القرآن الكريم ﴿وَمَا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِـيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُـمْ﴾[2]؛ ما يشيـر إلى أنّ هذا الفسـاد الذي يظهر في البرّ والبحر هو نفس ذاك العمل الذي قدّمه الناس ليذيقهم بعض الذي عملـوا لعلهم يرجعون. فالمحنـة هي في الواقع تجسيـدٌ بشـكلٍ مريـرٍ للأعمـال المسبقـة التـي قامت بها الجماعـة الممتحنة، وهي في نفس الوقت موعظةٌ ونذيرٌ من الله سبحانه.

تحليل جوانب المحنة

أيّ محنـةٍ تمـرّ بالإنسـان المسلـم لهـا جانبـان: جانبٌ موضوعيّ وجانبٌ ذاتيّ.

الجانـب الموضوعـيّ: أقصد بـه مجموعة الظروف

(١) هذه الفقرة من المحاضرة الثانية، وقدّمناها للمناسبة في هذا المكان.

(٢) الشورى: من الآية٣٠.

والملابسات والعوامل الخارجيّة التي أدّت إلى تكوين هذه المحنة، ووضعها بين يدَي هذا الإنسان الممتحن، أو هذه الجماعة الممتحنة[١].

والجانب الذاتيّ للمحنة: أقصد به دور هذا الإنسان الممتحن، وموقفه من المحنة، بعد وقوعها وقبل وقوعها.

ـ دراسة الجانب الذاتيّ للمحنة[٢]

ولهذا حيث إنّ كلّ محنةٍ لها جانبها الموضوعيّ وجانبها الذاتيّ، فلا بدّ للممتحنين جميعاً ـ بالإضافة إلى التفكير في الجانب الموضوعيّ الذي تتولّى التفكير فيه الجهات المسؤولة عن تلك المحنة ـ من أن يفكّروا في الجانب الذاتيّ من المحنة أيضاً، أن يعيشوا المحنة كعمليّة تطهيرٍ لأنفسهم،

(١) لم يكمل الشهيد (رضوان الله تعالى عليه) البحثَ عن الجانب الموضوعيّ للمحنة، لذلك لا نجد أيّ حديث له عن هذا الجانب في كلماته اللاحقة، واقتصر في محاضرتيه على دراسة الجانب الذاتيّ، من تقييم لشعور الإنسان الممتحن بعد المحنة، وقبلها دراسة الأرضيّة النفسيّة لأساليب العمل، المساعدة على تكوينها.

(٢) نؤكّد أنّ الشهيد لن يتعرّض فيما بعد للجانب الموضوعيّ.

وتزكيـةٍ لأرواحهـم، وتصميـمٍ على التوبة مـن التقصيرات المتراكمـة المتلاحقـة، التي عاشوها عبـر حياتهم العمليّة والعلميّـة، هذه التقصيرات التي قد لا يُحَسّ بكل واحدٍ منها على حدةٍ، لكنّها حينما تتراكم، تتحوّل إلى فتنةٍ تأكل الأخضر واليابس، وتأكل مـن ساهم ومن لم يساهم، تأكل من قصّر ومن لم يقصّر، تأكل الحسين (سلام الله عليه)[1].

إذاً، فدرسُ هـذا الجانب الذاتيّ واختبار نفوسنا ـ ونحن نواجـه محنةً ـ واختبار مشاعرنا تجـاه المحنة بعد وقوعها، واختبـار أعمالنا التمهيديّة التي مهّدت لهذه المحنة... هذا الاختبـار عمـلٌ ضروريّ آنـيّ يجب أن لا يشغلنـا عنه الألم، يجب أن لا ننشغل بالألم أو بالإنفعالات العاطفيّة عن حسابٍ مريرٍ من هذا القبيل.

(١) أليست تلك التقصيرات التي عاشها المسلمون منذ سقط الإمام عليّ عليه السلام صريعاً في المحراب في سبيل الدفاع عن المسلمين، التقصيرات المتراكمة التي عاشها الكثرة الكاثرة من المسلمين، (سبباً لفتنة كبيرة) ألم تأكل الفتنة التي تمحّضت عن تلك التقصيرات حتّى الحسين عليه السلام؟ حتّى الحسين عليه السلام أكلته الفتنة بالرغم من أنّه كان أنصف الناس وأبعد الناس عن تقصيرٍ في قولٍ أو عملٍ. منه قدس سره.

ونحـــن كيف يمكـــن أن نترقّب فرجاً مــن اللّه، أن نترقّب رحمــةً من اللّه تعالـــى، إذا كنّا لا نتفاعل مع النذر التي يريد اللّه تبارك وتعالـــى أن يميز فيها الخبيث من الطيّب، ويريد بها أن يفتح أمامنا أبواب التوبة من جديدٍ، وأبواب التطهير من جديدٍ؟

إذا شئنـــا أن نرجو من اللّه تعالى رجاءً حقيقيّاً، أن نرجو منـــه الرحمة والإمداد والعون علـــى مواصلة الصبر والثبات ومواصلـــة الخطّ... فأوّل شروط ذلـــك؛ أن نتجاوب مع هذه النـــذر، ونعيشـــ مع اللّه، لنقـــرأ من جديدٍ صفحـــات حياتنا وأعمالنا وما قدّمنا وما أخّرنا.

أولاً: مشاعرنا تجاه المحنة

لا بدّ قبل كلّ شيءٍ من أن ننظّف هذه المشاعر، وأن نجعل مشاعرنـــا تجاه المحنة مشاعر صحيحـــةً وإسلاميّة، تنبض بالغيـــرة على الإســـلام لا بالغيرة على مصالحنـــا الخاصّة، وبالغيـــرة علـــى الوجود الكليّ لهـــذا الكيـــان، لا بالغيرة على

هذا الوجود وذاك الوجـود، لأنّنا ما لم ننظّف هذا الشعور، ونحــن في غمرة الامتحان القاصــي والمرير، ما لم نستطع على أقـلّ تقدير أن ننتصــر في معركة تغيير هــذا الشعور، وفــي معركة إيجاد شعورٍ نظيفٍ تجـاه هذا الامتحان، ما لم نستطع أن نغيّر هذا القدر الضئيل من نفوسنا... كيف نطمع أن نبنــي أنفسنا ككلّ؟ وكيف نطمع أن نبني المسلمين ككلّ؟ إذاً؛ منطلـق الحديث هو هذا الشعور الــذي يواجه الإنسان الممتحن تجاه محنته، كيف يكون هذا الشعور؟

كثيــراً ما نجد محنــةً، وتولّــد المحنة مشاعــر متعدّدةً، وبالرغــم من وحــدة المحنة تختلف المشاعــر في درجاتها ومستوياتهــا تبعــاً لاختــلاف التصوّر والتفكيــر، ولاختلاف الروحيّــة والاتجــاه. واختلاف الشعــور يــؤدّي لا محالة إلى اختلاف الموقف الذي يتّخذه الممتحن تجاه محنته، إذ تبعاً لنوعيّــة الشعور ســوف يتّخذ الموقف المطلــوب وفقاً لذلك الشعور.

درجات الشعور تجاه هذه المحنة

الدرجة الأولى: قد يكون شعور بعض الناس إزاء هذه المحنة أنّ هذه المحنة كلّفته ولده، كلّفته أخاه، كلّفته صديقه، لأنّه أُخذ أخوه أو أُخذ أبوه أو أُخذ صديقه إلى المعركة فقُتل. قد يعيش هذه المحنة على هذا المستوى، هذا هو الشعور الشخصيّ المحدود بالمحنة. وموقفه إزاء هذا الشعور أن يُهرّب أخاه أن يُهرّب أباه، أو أن يتهرّب من واجبات القانون حتّى لا ينخرط في مأساةٍ من هذا القبيل، ولا يرى له واجباً من وراء ذلك.

الدرجة الثانية: حيث يتعمّق هذا الشعور أكثر فأكثر؛ فيكون شعوره إزاء المحنة إقليميّاً على أساس أنّ أبناء البلد الواحد يتصارعون ويتنازعون فيما بينهم، وهذا الشعور والإنفعال الإقليميّ تجاه المشكلة يؤدّي إلى اتخاذ موقفٍ أوسع من الموقف الأوّل، إلى موقفٍ يفكّر فيه في كيفيّة إعادة الصفاء والسلام إلى أبناء البلد الواحد.

الدرجة الثالثة : قد يكون شعوره أعمق من هذا وذاك؛ قد يشعر بإزاء المحنة أنّ هذه المحنة هي نتاج عدم تطبيق شريعـة اللّه تعالـى على هـؤلاء المسلميـن. إنّ عدم تطبيق شريعة اللّه عليهم هو الذي أدّى إلى تعميق التناقض بين الأخ وأخيـه، حتّى ولّدت مشكلة بين هذا وذاك، وتصارع الكرديّ والعربـيّ. حينئذٍ هذا الشعور سـوف يولّد موقفاً يختلف عن الشعـور السابق الإقليميّ والشعور الأسبق الشخصيّ، سوف يجعلـه هذا الشعور يحمـل همّ الشريعة ويصـل إلى السبب الحقيقيّ لهذا التوتّر.

الشعور بالدعة والإستقرار بعد وفاة الرسول

وأمّـا حينما نعيش شعورنا وغضبنا وألمنا للّه لا لأنفسنا، حينمـا نشعـر بـأنّ المحنـة ليسـت هـي أنّنـا فقدنـا حياة الإستقرار والطمأنينة، عندها نعيش حياة الكفاح والجهاد، لا حيـاة الدعة والإستقرار. متى كنّـا نعيش حياة الإستقرار والطمأنينة منذ تُوفّي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ؟!

منــذ وقعت تلك المصيبة العظيمــة، حينما خلّف القائد الأعظم أمّــةً بناها بجهده وتضحياته وسهــره في آناء الليل وأطـراف النهار، حينما ترك هــذه الأمّة وهي بعد في بداية الطريق تواجه ألوان العواصف والمِحَن والمشاكل، منذ تلك اللحظة لم يعش الإنسان المؤمن حياة الإستقرار. ألم يصف الأميــر عليه السلام الفتنــة التي وُجدت وولدت عقيــب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنّها «**الفتنة التي يشيب فيها الوليد**»؟ فهل تكون حياة يشيب فيها الوليد هي حياة الإستقرار والطمأنينة؟

لكــنّ الفرق هو أنّ هناك من النــاس من لا يحسّ بفقدان الإستقــرار، الإستقــرار غيــر موجودٍ ولكن لا يحســّ بفقدان الإستقرار، ولا يدرك أنّه لا إستقرار إلا حينما تمسّه النار. إنّ الواقع لم يتغيّر ولم يختلف منذ مئات السنين. حياة الإستقرار والدعة غير موجودةٍ لشخصٍ يحمل الهموم التي كان يحملها ذلــك القلــب الكبير، قلــب الإمام علــيّ عليه السلام الذي قــال إنّ الفتنــة يشيب فيها الوليد. الشخص الذي يعيش تلك الهموم لا يجد في الدنيا حياة الإستقرار والدعة، بل هي حياة العناء

والمسؤوليّة، حياة الكفاح والجهاد لا حياة الدعة والإستقرار مهما توفّرت أمامه أسباب الرخاء بحسب الظاهر.

الامتحان يمسّ كيان الصروح العلميّة

نحن كنّــا قد فقدنا حياة الدعــة والإستقرار منذ عصف القــدر بنبيّنــا صلى الله عليه وآله وسلم. ولئــن كان بعضنا يشعــر مؤقّتــاً بالدعة والإستقــرار فهــذا لأنّه لم يعش تلك الهمــوم، لأنّه لم يكن مع الناس، لأنّه لم يكن على مستوى المسؤوليّة، . إذاً فلا دعة ولا إستقرار. نحن لم نخسر دعةً واستقراراً وإنّما امتحنّا في كيان، امتحنّا في والذي ورثناه منذ مئات السنين، هذا الكيان الذي بُذل في سبيله من جهود سلفنا الصالح الطاهر من أصحاب الأئمّة عليهم السلام ومن أجيال الفقهاء بعد ذلك جيلاً بعد جيلٍ.

بُــذل في سبيــل هذا الكيــان وتدعيمه وتطويــره وتنميته وجعله مشعــلاً للإسلام في كلّ أرجــاء العالم الإسلاميّ... من الدم الطاهر والوقت الطاهر والعمر الطاهر ما امتلأ به تاريخ سلفنا الطاهر. المشكلة هي مشكلة هذا الكيان.

إذاً فليست المشكلة مشكلة هذا الفرد أو ذاك الفرد، إنّما هي مشكلة هذا الوجود الكليّ لكلّ هؤلاء الأفراد. وهذا الكيان ـ كما قلت ـ ليس كياناً قد وصل إلينا مجّاناً حتّى نستطيع أو حتّى يجوز لنا ـ بمبرّرات الهزيمة النفسيّة ـ أن نسلّمه بسهولة، وأن ننسحب عنه باختيارنا، وأن نضيّعه بأنفسنا... وإنّما هو كيانٌ وصل إلينا عبر تاريخٍ مليءٍ بالتضحيات وبالعمل الصالح والجهاد الصالح. هذا هو الكيان، الذي تسرّبت في كلّ أرجائه الآلام التي عاشها محمّد بن أبي عمير في سبيل إنشاء هذا الكيان ومئات من أمثال محمّد بن أبي عمير من أصحاب الأئمّة عليهم السلام. الذين عاشوا ألوان المحنة والاضطهاد وألوان البلاء في سبيل ترسيخ هذا الكيان.

ثانياً: محاسبة النفس

كلّ واحدٍ منّا يجب أن يحاسب نفسه قبل أن يدخل إلى محاسبة الآخرين. يجب أن يتأمّل في آلامه، في انفعالاته النفسيّة، هل هي انفعالات لله أو انفعالات لمصالحه؟ إذا كانت

انفعالاته لمصالحه فيجب أن لا يرجو من اللّه شيئاً، يجب أن لا يرجو من اللّه حتّى الثواب، لأنّه هو يتألّم لنفسه لا يتألّم للّه، فلماذا يثيبه اللّه؟ على مــاذا يثيبه اللّه؟ سوف يكون محروماً حتّــى من الثــواب الآجل فضلاً عــن الفرج. أمّــا إذا كان ألمه للّه حقيقــةً، إذا كان انفعاله للّه حقيقــةً، فحينئذ سوف يكون أوسع نفساً، سوف يكون أوسع أفقاً، سوف ينظر إلى كلّ العالم الإسلاميّ، إلى كلّ المسلمين، إلى كلّ المشاكل نظرةً واحدة.

هــذه المرجعيّة الموجودة اليوم ابتُليــت بمصائب كثيرةٍ قبــل اليوم، ابتُليــت بمِحَنٍ كبيرةٍ، ابتُليــت بمِحنةٍ كبيرةٍ قبل بضــع سنوات! لكن انظــروا هل إنّ التفاعل مــع تلك المِحَن والمصائــب التــي ابتُليت بهــا المرجعيّة وابتُلــي بها الكيان الموجود اليوم كان بدرجةٍ واحدة؟!

إنّ الشخصــ الذي يعيش للّه يجب أن يتفاعل مع كلّ هذه المصائــب، مــع كلّ هذه المِحَــن التي يُبتلى بها هــذا الكيان بدرجةٍ واحدةٍ وبنحوٍ واحدٍ سواءً أكانت النار موجّهةً إلى جهةٍ مباشرةٍ أم موجهةً إلى أخيه أم موجهةً إلى أخيه الآخر.

إنّ تفاوت درجات الانفعال واختلاف موقف الإنسان تجاه هــذه المِحَن يجــب أن يعالجه كلّ إنسان منّــا في نفسه لكي يعيش للّه.

الأرضيّة النفسيّة لأساليب العمل

أريد أن أتحــدّث عن الأرضيّة النفسيّــة لهذه الأساليب، فإنّ منطلق المصيبة والمحنة هو تلك الأرضيّة النفسيّة التي عشناهــا طيلة الزمــن الذي تقدّم وسبق هــذه المِحَن، هذه الأرضيّــة النفسيّة لم تكن أرضيّةً نفسيّــةً صالحةً لكي تنشأ ضمنهــا أساليب العمل الصالحة ولكــي تؤتي هذه الأساليب ثمارها.

هذه الأرضيّة النفسيّة التي عشناها، والتي كانت ولا تزال تساهم في خلق المشاكل في طريقنا، وفي تكوين المِحَن في وجوهنا، أستطيع أن أرجعهــا بالتحليل إلى عاملين نفسيّين أساسيّين وهما مرتبطان كلّ الارتباط فيما بينهما.

أحد العاملين: هو عــدم الشعور التفصيليّ بالارتباط باللّه تعالى.

والعامـل الآخــر: هــو أن الأخلاقيّة التي كنّــا نعيشها ليست أخلاقيّة الإنسان العامل، بل هي أخلاقيّة إنسان آخر لا يصلح للعمل الحقيقيّ.

وإذا كنّــا نريــد أن نستفيــد من هــذه المحنــة، وإذا كنّا جادّين فــي الحساب، فلا بدّ أن نرجع إلــى هذين العاملين الأساسيّين لكي نستطيع أن نتيح لأنفسنا فرصة التكفير عمّا سبق بالنسبة إلى كلٍّ من هذين العاملين:

١ ـ عـدم الشعـور التفصيلـيّ بالارتبـاط بـاللّٰه سبحانه

الجميــع يعرف أنّ من ينسى اللّٰه ينساه اللّٰه، ومن ينقطع عــن اللّٰه ينقطع عنــه اللّٰه سبحانه وتعالى، ألــم يقل اللّٰه ما مفاده «صانع وجهاً واحداً يكفك الوجوه كلّها».

نحن اليوم نرى أن الوجوه كلّها ساخطةٌ علينا متبرّمةٌ منّا وذلــك لأنّنا لم نصانع وجهاً وحداً حتّــى يكفينا ذلك الوجه الواحــد الوجوه كلّها. نحــن لم نشعر خلال حياتنــا العمليّة

بأنّنـا مرتبطون ارتباطاً حقيقيّاً بـالله تعالى، وأنّنا مدعوّون من قبلـه سبحانه وتعالى إلـى بذل كلّ وجودنـا وإمكانيّاتنا فـي سبيله. حيث إنّنا لم نعش هذا الشعور، لم نصانع وجهاً واحـداً، ولمّـا كنّا لم نصانـع وجهاً واحداً لـم يكفنا الوجوه كلّها. أفضلنا وأشطرنا هو من صرف قواه وطاقاته في سبيل أن يصانع هذا الوجه، وهذا الوجه، وعمليّة مصانعة الوجوه بشـكل فـرديّ لا يمكن أن تـؤدّي إلا إلى نتيجـةٍ فرديّةٍ، وأمّا مـن صانع ذلك الوجه العظيم الـذي بيده ملكوت السماوات والأرض فهو القادر على أن يكفيه الوجوه كلّها.

الأئمّـة عليهم السلام بالرغـم من أنّهـم كانـوا مضطهدين من قبـل سلاطيـن وقتهم، وكانـوا دائمـاً يعيشـون المحنة من حـكّام زمانهـم، وبالرغـم مـن أنّ أجهزة تلـك الحكومات كانـت كلّها تقوم على أساس الدعايـة ضدّهم، وعلى أساس نشـر المفاهيم المعاكسة لخطّهـم، وبالرغم من أنّهم سُبّوا علـى منابر المسلمين ألف شهـرٍ، وبالرغم من كلّ الطاقات التي بُذلت من قبـل سلاطين الوقت في سبيل تمييعهم وفي

سبيــل فصل قواعدهــم الشعبيّة عنهــم... وبالرغم من كلّ ذلــك نــرى أن عليّ بن الحسيــن عليه السلام حينما يأتــي ليستلم الحجــر الأسود، ينفرج هــؤلاء المسلمون الذيــن يُسبّ عليّ بن الحسيــن وأبوه وجدّه على منابرهم فــي بلادهم، هؤلاء المسلمون الذين نشؤوا ونشــأ آباؤهم على سبّ الإمام وأبيه وجدّه، هؤلاء المسلمون أنفسهــم ينفرجون بين يديه، بينما لم يكونوا ينفرجون أمام سلطانٍ من أولئك السلاطين الذين كان يبحث عن طريقه إلى الحجر فلا يجده. لماذا؟ لأنّ عليّ بن الحسين عليه السلام صانع وجهاً واحداً فكفاه الوجوه كلّها.

لا تقولــوا إنّ الناس على ديــن ملوكهم، لأنّ الملوك وقتئذٍ مــاذا كان موقفهــم من عليّ بن الحسيــن عليه السلام؟ هل هشام بــن عبد الملك أو عبد الملك نفسه كان مع عليّ بن الحسين عليه السلام؟ أكان يحمل مفهوماً صحيحاً أو يبشّر بمفهومٍ صحيحٍ عــن عليّ بــن الحسيــن عليه السلام؟ لكــنّ الناس أنفسهــم كانوا مجذوبيــن إلــى الإمــام عليّ بــن الحسيــن عليه السلام، لأنّه كان يعيشــ بكلّ وجوده حالة الاتصال بالله! وحالة الاتصال بالله

بالرغم من أنّها كمال للإنسان هي بحدّ ذاتها طاقةٌ للنجاح في خطّ العمل، لأنّ هذا الاتصال بالله سوف يضع قاعدةً لما سنتحدّث عنه من (أخلاقيّة الإنسان العامل)، فإنّ أخلاقيّة الإنسان العامل لا يمكن أن تتكّون عند الإنسان إلا إذا كان يعيش حالة الاتصال بالله سبحانه وتعالى عيشاً تفصيليّاً.

آثار الشعور بالارتباط التفصيليّ بالله

إضافةً إلى ذلك إنّ هذا الاتصال بالله تعالى يجعل الإنسان قادراً على أن يدعو ويترقّب من الله الاستجابة، أمّا إذا كان نسي الله تعالى أيّام رخائه، وقد ترك الله ودينه ومِحنته ومشاكل رسالته، وكان يفكّر في نفسه لا في الله... حينئذٍ كيف يمكن أن يرجو هذا الإنسان حينما يقع في مِحنةٍ أن يمدّ يده إلى السماء فيستجيب الله دعاءه؟ ولماذا يستجيب الله دعاءه؟! لماذا يستمع إلى لسان لم يلهج بذكر الله؟! وإلى يدين لم تتحرّكا في طاعة الله؟ وإلى قلبٍ لم ينبض بالحبّ لله تعالى؟

نحــن لا يمكننــا أن نترقّــب استجابة الدعــاء إلا إذا كنّا نعيش حالة الاتصال باللّه وكنّا قد عبّأنا وجودنا وقِوانا باللّه سبحانــه وتعالــى، وحينئذٍ يمكن أن نطلــب من اللّه سبحانه وتعالى الإمداد والمعونة والتغلّب على كلّ المشاكل والمِحن.

٢ ـ أخلاقيّة الإنسان العامل

والعامـل الثانــي: هــو الأخلاقيّــة. نحــن أخلاقيّتنا التي نعيشها لم تكن أخلاقيّة الإنسان العامل.

هناك مظاهر أساسيّة للأخلاقيّة التي كنّا نعيشها، وهذه المظاهــر هــي أبعد ما تكون عــن أخلاقيّة الإنســان العامل الذي يريد أن يحمل رسالة اللّه . هذه الأخلاقيّة لا بدّ لنا من أن نطوّرهــا في نفوسنا، لا بدّ لنا من أن نغيّر هذه الأخلاقيّة ونفتح بالتدريج أخلاقيّة الإنسان العامل لكي نهيّئ الأرضيّة النفسيّة التي يقام على أساسها العمل الصحيح.

ألف) روح التضحية والإيثار بالمصالح الخاصّة

الأخلاقيّة التي كنّا نعيشها من نقاطها الرئيسيّة الارتباط بالمصلحة الشخصيّة بدلاً عن الاستعداد للتضحية. نحن بحاجةٍ إلى أخلاقيّة التضحية بدلاً عن أخلاقيّة المصلحة الشخصيّة، بحاجةٍ إلى أن نكون على استعدادٍ لإيثار المصلحة العامّة للكيان على المصلحة الخاصّة لهذا الفرد أو لذاك الفرد، نحن لا بدّ لنا من أخلاقيّة التضحية بالمصالح الخاصّة في سبيل المصالح العامّة، أمّا ما كان موجوداً فهو على الغالب إيثار للمصلحة الخاصّة على المصلحة العامّة. كنّا نعيش لمصالحنا وكنّا لا نعيش للمصلحة العامّة حينما تتعارض مع مصالحنا الخاصّة.

وهذه النزعة الأخلاقيّة (النزعة الأخلاقيّة التي تتّجه نحو المصلحة الخاصّة لا نحو المصلحة العامّة) تجعل القدر الأكبر من طاقتنا وقِوانا وإمكانيّاتنا في سبيل تدعيم المصالح الخاصّة أو في سبيل الدفاع عنها.

حينما تتوجّه الاتجاهات من المصلحة العامّة إلى

المصلحــة الخاصّــة، ســوف يضطــرّ كلّ إنســانٍ يعيش في جوٍّ عامــرٍ بهذا الاتجاه، سوف يضطــرّ كلّ إنسان منهم إلى التفكير في نفسه، وإلى الدفاع عن نفسه، وإلى تثبيت نفسه، وبذلــك نصرف ثمانين بالمائة من قِوانا وطاقتنا بالمعارك داخــل هذا الإطار، بينمــا هذه الثمانيــن بالمائة من القوى والطاقــات التــي تصرف في معارك داخل هــذا الإطار كان بالإمــكان ـ لو أنّنا نتحلّــى بأخلاقيّة الإنســان العامل، أعني بأخلاقيّة التضحية بالمصلحة الخاصّة في سبيل المصلحة العامّــة ـ أن نحوّل هذه الثمانين بالمائة للعمل في سبيل اللّه بتدعيم الإطــار ككلّ، وترسيخه، وتكديسه وتوسيعه. وبذلك ـ لــو كنّا نعقل ـ لكنّــا نستفيد أيضاً حتّى بحســاب المقاييس العاجلة أكثر ممــا نستفيد ونحن نتنازع ونختلف داخل إطارٍ معرّضٍ لخطر التمزّق، داخل إطارٍ مهدّدٍ بالفناء.

إلــى متى نحن نعيشــ المعركة داخــل إطــارٍ يُحكم عليه بالفناء يوماً بعد يوم، ولا نفكّر في نفس الإطار، ولا نفكّر في أن نتناسى مصالحنا الصغيرة في سبيل المصلحة الكبيرة؟

أخلاقيّـة الإنسان العامـل أو شروطها هـو أن يكون عند الإنسـان شعـورٌ واستعـدادٌ للتضحية بالمصالـح الصغيرة فـي سبيل المصلحة الكبيـرة، وهذا ما لا بدّ لنا من ترويض أنفسنا عليه.

ب) نزعة التجديد في أساليب العمل

المظهـر الثاني من مظاهر أخلاقيّـة الإنسان العامل هو الاتجـاه إلى التجديد في أساليـب العمل (نزعة التجديد في أساليب العمل). نحن عندنا (نظريّة) وعندنا (عمل).

١ـ **النظريّـة**: هـي الإسلام ولا شـكّ ولا ريب في أنّ ديننا ثابـتٌ لا يتغيّر ولا يتجدّد، ولا شـكّ أنّ هذا الدين هو أشرف رسالات السماء وخاتم تلك الأديان الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى للإنسان في كلّ مكانٍ وفي كلّ زمانٍ. ولهذا فالصيغة النظريّة للرسالة صيغةٌ ثابتةٌ لا تتغيّر ولا يمكن أن نؤمن فيها بالتجـدّد. من الخطأ ألف مرّة أن نقـول إنّ الإسلام يتكيّف وفـق الزمان، الإســلام فوق الزمان والمـكان لأنّه من وضع

الواضع الــذي خلق الزمان والمكان، فقد قدّر لهذه الرسالة القدرة على الامتداد مهما امتدّ المكان والزمان.

الصيغة النظريّة للإسلام صيغةٌ ثابتةٌ فوق التجدّد وفوق التغيّــر. لا بدّ لها هــي أن تحكم كلّ عوامل التغيّر وكلّ عوامل التجــدّد لا أن تحكم عوامل التجــدّد والتغيّر الرسالة وتحكم الإسلام، بل الإســلام يحكم كلّ عوامل التجدّد. هذا واضحٌ على مستوى النظريّة ولا بدّ أن يكون واضحاً عندنا جميعاً.

٢ـ **وأمّــا العمــل في سـبيل هــذه النظريّة**: ففــي أساليب العمــل الخارجيّ كانــت لدينا حالةٌ؛ أنا استطيــع أن اسمّيها «حالــة النزعــة الاستصحابيّــة»، فكنّــا نتّجه دائمــاً إلى ما كان ولا نفكّــر أبداً في أنّه هل بالإمــكان أن يكون أفضل ممّا كان؟ وهذه النزعة الاستصحابيّة إلى ما كان والحفاظ على مــا كان يجعلنا غير صالحيــن لمواصلــة مسؤوليّتنا؛ وذلك لأنّ أساليــب العمل ترتبط بالعالَم، ترتبــط بمنطقة العمل، ترتبــط بالبستــان الذي تريــد أن تزرع فيه، وهــذا البستان

هــي الأمّــة التــي تريد أن تــزرع فيها بــذور الخيــر والتقوى والــورع والإيمان... ليست لها حالةٌ واحدةٌ، الأمّة تتغيّر، نعم إسلامــك لا يتغيّر، لكن الأمّة تتغيّر، الأمّــة اليوم غير الأمّة بالأمس فــي مستواها الأخلاقيّ، فــي علائقها الاجتماعيّة، فــي أوضاعها الاقتصاديّة، في كلّ ظروفها، الأمّة اليوم غير الأمّــة بالأمس، وحيث إنّ الأمّة اليوم غيــر الأمّة بالأمس، لا يجــوز لــك أن تتعامل مع الأمّــة اليوم كما تعاملــت مع الأمّة بالأمس، أنت اليوم حينما تريــد أن تتصّل بإنسانٍ من أبناء الأمّــة في بلدٍ آخر لا تمشي على رجليــك، ولا تركب حيواناً، وإنّمــا تركب سيارةً لكي تصل إلى هنــاك، يعني أنّك غيّرت أساليــب عملك مــع أبناء الأمّــة، لماذا؟ لأنّ الأمّــة تغيّرت، فحيــث إنّ منطقة العمل هــي الأمّة، حيث إنّك تريد أن تزرع بذورك، (بــذور التقوى والورع والإيمان) فــي الأمّة... لهذا يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الظروف والتغيّرات والتصوّرات التي توجد في الأمّة، هــذه التصوّرات والتغيّرات التي توجد

فــي الأمّة، تحدّد لنا أساليب العمل، وليس بالإمكان أن يكون هناك أسلـوبٌ واحدٌ يصــدق على الأمّة اليــوم، وعلى الأمّة بالأمس، وعلى الأمّة غداً.

التحرّر من النزعة الاستصحابيّة

لا بــدّ لنا مــن أن نتحرّر من النزعــة الاستصحابيّة، من نزعــة التمسّــك بمــا كان حرفيّاً بالنسبــة إلــى كلّ أساليب العمــل. هــذه النزعــة التي تبلــغ القمّــة عند بعضنــا. هذه النزعــة الاستصحابيّة التي تجعلنا دائمــاً نعيش مع أمّةٍ قد مضى وقتها، مع أمّةٍ قد ماتت وانتهت بظروفها وملابساتها، لأنّنــا نعيشــ بأساليب كانــت منسجمةً مع أمّةٍ لــم يبقَ منها أحــدٌ، وقد انتهت وحدثت أمّةٌ أخرى ذات أفكارٍ أخرى، ذات اتجاهــاتٍ أخــرى، ذات ظروفٍ وملابســاتٍ أخرى، فحينئذٍ من الطبيعيّ أن لا نوفّق في العمل لأنّنا نتعامل مع أمّةٍ ماتت، والأمّة الحيّة لا نتعامل معها، فمهما يكن لنا من تأثيرٍ سوف

يكون هذا التأثير سلبيّـاً، لأنّ موضوع العمل غير موجودٍ في الخــارج، موضوع العمل ميّتٌ، وما هــو موجود في الخارج لا نتعامل معه.

يجب أن يكون واضحاً عندنا أنّنا يجب أن نتعامل مع هذا الإنسان الحيّ الموجود في الخارج المكوّن من اللحم والدم، وهــذا الإنسان يتغيّر ويتطـوّر وتختلف ظروفـه وملابساته، نحــن لا بدّ لنا مــن أن نتعامل مع هذا الإنســان، وحيث إنّنا لا بــدّ لنا مــن أن نتعامل مع هذا الإنسان فلا بدّ من أن نفكّر دائماً في الأساليب التي تنسجم مع هذا الإنسان.

بين الشهيد الأوّل وعلماء العصر

الشهيد الأوّل (رضوان اللّه عليه) قبل قرون وقرون فكّر في تنظيم شؤون الدين والمرجعيّة بشكلٍ من الأشكال، ونقل الكيــان الدينيّ من مرحلةٍ إلى مرحلــةٍ، لكن أليس بالإمكان أن يفكّــر مئــات العلماء الذين جاؤوا بعــد الشهيد الأوّل إلى الآن، ومئات العلماء الموجودين فعلاً، ومئات العلماء الذين

ســوف يخلفون هــؤلاء العلماء بعد ذلك، أليســ بالإمكان أن يفكّر هــؤلاء المئات من العلماء في تطويــر أساليب الشهيد الأوّل؟ في تحسينها، في تنقيتها؟ أليس بالإمكان هذا؟

مــا دمنا نؤمن بــأنّ الأساليب تتغيّــر وإن كانت النظريّة ثابتــةً، إذاً فــلا بــدّ لنا مــن أن نفتح بابــاً للتفكيــر في هذه الأساليــب! هذا جزءٌ من وظيفتنا، لأنّنا ندرس العلم للعمل، ولا ندرس العلم لكي نجمّده في رؤوسنا. فيجب أن نفكّر في أنّنــا عالمون لكي نعمل لا أنّنا عالمــون لكي نعلَم فقط، فإذا كنّا عالمين لكي نعمل فلا بدّ من أن نجعل جزءاً من وظيفتنا أن نطــرح علــى أنفسنا، أن نطرح علــى أساتذتنا، أن نطرح على زملائنا، أن نطرح في كلّ مكان هذه الأسئلة:

- مــا هــو العمــل؟ كيف نعمــل؟ ما هــي أساليــب العمل؟ كيف يمكن تجديد أساليــب العمل بالشكل الذي ينسجم مع الأمّــة اليوم؟ نحن نتعامل مع عالَــم اليوم لا مع عالَم عصر المماليك، إذاً كيف نتعامل مع عالم اليوم؟

هــذه أسئلةٌ قد يكون جوابها صعباً فــي بداية الأمر؛ لأنّه

ليس هنــاك مطالعاتٌ وترويضٌ فكريّ علــى الجواب عليها. هــذه الأسئلــة أسئلةٌ دقيقــةٌ ومرتبطةٌ بمدى خبــرة الإنسان وتجاربــه واطلاعه على ظروف العالَم. لهذا قد نجد صعوبة فــي الجواب على هذه الأسئلة، لكــن هذه الصعوبة لا بدّ من تذليلها بالبحث والتفكير ومواصلة البحث والتفكير.

إذاً لا بــدّ مــن أن نجعــل جــزءاً مــن وظيفتنــا أن نفكّر دائمــاً في كيفيّة تغيير أساليب العمل، وكيفية الانسجام مع وضعنا وبيئتنا.

ج) العقليّة الرياضيّة والعقليّة الاجتماعيّة

تبقــى هناك نقطةٌ أخــرى متمّمةٌ لهذه النقطــة لا بدّ لي مــن إثارتها، وهي أنّنا حينما نفكّر فــي أساليب العمل يجب أن لا نفكّــر في ذلك بعقليّة الأصول والفقه، بعقليّة «الترتّب» و«استحالة اجتماع الأمر والنهي»(١) أي بالعقليّة الرياضيّة.

هنــاك عقليّةٌ رياضيّــةٌ، وهناك عقليّــةٌ اجتماعيّةٌ. توجد

(١) إشارة إلى الأبحاث الأصولية الدقيقة المبنيّة على العقليّة الرياضيّة.

عقليّتــان، يوجــد نوعان من التفكير، تفكيــر رياضيٌّ وتفكير اجتماعيٌّ.

التفكيــر الرياضيّ: هو التفكير الــذي لا يقبل حقيقةً مــن الحقائق إلا إذا كانت كلّ نقــاط الضعف فيها قد أُزيلت بالبرهان القويّ الواضح الذي لا يقبل الشكّ والجدال، فإذا كانــت النتيجة الرياضيّة واضحةً بعــد التحليل على مستوى أنّ اثنيــن زائــداً اثنين يساوي أربعةً، حينئــذٍ تقبل، وأمّا إذا لــم يوجد البرهــان الواضح القاطــع على صِحّتهــا لا تقبل. هذا هو التفكير الرياضيّ، وهو التفكير الذي نعيشه في علم الأصول، لأنّ كثيراً من قواعد علم الأصول يبنى على أساس البرهنة، لكن هــذا التفكير يختلف عن التفكير الاجتماعيّ. التفكير الاجتماعيّ لا يمكن أن نطلب فيه البرهان.

حينمــا نريد أن نغيّــر كتاباً دراسيّاً بكتــاب دراسيٍّ آخر لا يمكــن أن نتطلّب في مقام الامتنــاع برهاناً رياضيّاً بحيث إنّــي أبرهــن لك علــى أنّه لــو لم يدرّس هذا الكتــاب لوقع اجتماع النقيضين، أمّا لو درّس هذا الكتاب فلا يقع اجتماع

النقيضين، مثل هذا البرهان الرياضيّ لا يمكن أن يكون في العمل الاجتماعيّ.

العمل الاجتماعيّ: يقوم على أساس الحدس الاجتماعيّ، والحدس الاجتماعيّ يتكوّن من الخبرة والتجربة ومن الاطلاع على ظروف العالَم وملابسات العالَم.

إذاً يجب أن نفتح أعيننا على العالَم.

إذاً يجب أن نعيش الخبرة والتجربة في العالَم.

العمل الاجتماعيّ بحاجةٍ إلى حدسٍ اجتماعيٍّ، والحدس الاجتماعيّ يتكوّن من خلالِ التفاعل مع الناس، من خلال الاطلاع على ظروف العالَم، من خلال الاطلاع على الملابسات، من خلال الاطلاع على التجارب التي قام بها الآخرون، من خلال المقارنة بين أحوالنا وأحوال الآخرين، من خلال كلّ ذلك يتكوّن هذا الحدس الاجتماعيّ.

إذاً فلكي نكون متّجهين اتجاهاً صحيحاً في تفكيرنا في أساليب العمل يجب أن نغيّر من طريقة تفكيرنا؛ يعني أن لا نصطنع نفس الطريقة الأصوليّة حينما نفكّر في أساليب العمل، وإنّما نعتمد على الحدس الاجتماعيّ ونفتّش عن كيفيّة تكوين هذا الحدس في أذهاننا عن طريق تعميق خبراتنا وتجاربنا.

الخلاصة

إنّ المفهــوم القرآنــيّ عــن المحنــة يؤكّــد أنّ الجماعــة الممتحنة تتحمّل مسؤوليّة وقوع هذه المحنة، وأيّ محنةٍ تمرّ بالإنسانِ المسلم لها جانبان: موضوعيّ، وذاتيّ.

أولاً: لا بدّ من أن نقيّم شعورنا تجاه المحنة.

ثانياً: أن نحاسب أنفسنا على مساهمتنا في تكوين هذه المحنة، وعلى دورنا الإيجابي في صنعها.

وقبــل كلّ شــيءٍ علينــا أن ننظّــف مشاعرنــا، ونجعلهــا صحيحةً وإسلاميّةً تنبض بالغيرة على الإسلام.

درجات المحنة

١ ـ قد يعيش بعض الناس إزاء محنة الصراع بين فرقتين من المسلمين على المستوى الشخصيّ المحدود.

٢ ـ وقــد يكون شعــوره إزاء المحنة إقليميّــاً وأوسع دائرةً ومسؤوليّةً من الشعور الأوّل.

٣ ـ وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذاك؛ فيشعر أنّ هذه المحنة هي نتاج عدم تطبيق شريعة اللّه تعالى.

محاسبة النفس

كلّ واحــدٍ منّا يجب أن يحاسب نفســه قبل أن يدخل إلى

محاسبة الآخرين، فيتأمل آلامه، وانفعالاته النفسيّة، هل هي للّه أو لمصالحه الشخصيّة؟ ويجب أن يعالج ذلك كلّ إنسان منّا في نفسه لكي يعيش للّه.

ترجع الأرضيّة النفسية التي نعيشها قبل المحنة بالتحليل إلى عاملين نفسيّين أساسيّين، هما مرتبطان كلّ الارتباط فيما بينهما.

الأوّل: عدم الشعور التفصيليّ بالارتباط باللّه تعالى. الذي يجعل الإنسان قادراً على أن يدعو ويترقّب من اللّه الاستجابة.

الثاني: الأخلاقيّة التي كنّا نعيشها هي أخلاقيّة إنسانٍ لا يصلح للعمل الحقيقيّ.

وأبرز أخلاقيّات الإنسان العامل التي تهيّئ الأرضيّة النفسيّة التي يقام على أساسها العمل الصحيح هي:

ألف) وجود روح التضحية والإيثار بالمصالح الخاصة.

ب) نزعة التجديد في أساليب العمل.

ج) الاستفادة من العقليّة الاجتماعيّة لا الرياضيّة.

الفهرس